- ٨ -

القلاع والشؤون الحربية

ان الأقليــة التى تسعى الى حكم أغلبيــة معادية ليس أمامهــا من ســبيل لضمان وجودها سوى أن تتمركز فى اعداد صغيره نسبيا وفى أماكن حصينة ، ســـواء كانت مدنا أو قلاعا • وعلى الرغم من ذلك فان هـــذه الوسيلة لم تكن كافيـــة لاحكام السيطرة على المناطق الريفية ، ولضمان الاتصالات وجعل الوجود الفرنجى فى الأرض المقدســـة حقيقة ملموســة • ولهذا ، فبالاضــافة الى المدينة المحصنة والقلعة الضخمة ، فان الصليبيين رصـــعوا شبكة الطـــرق الرئيسية والثانوية فى البلاد بالحصون ونقاط المراقبــة التى هى أقرب الى مراكز الشرطة منهــا الى القواعد العسكرية • فقد كان من السهل ان تتصل الحصـــون والحاميات من الجبل الى السهل عن طريق الاشارات بالنيران أو الحمام الزاجل ، وهو أسلوب تعلمه الفرنجة من المسلمين فى الشرق • وبهذه الوســـائل كانت الاخبار تنتقل بسرعة من الأردن ، عن طـــريق بيت المقدس الى يافا وعكا • وكانت المواقع الصـــليبية الحصينة بمثابة مؤسسات عسكرية ثابتة ، على حين كان الجيش هو العنصر المتحرك فيها •

فالحصن أو القلعة أو المدينـــة فى المملكة اللاتينية لم تكن جديدة تماما • فقد كانت المـــدن على وجه الخصـــوص مدنا استولى عليهـــا الصليبيون من حكامها المسلمين ، وهو ما يعنى ان الصليبيين لم يقوموا ببناء هذه المدن ، وانحصرت مســاهمتهم عادة فى تطوير نظــام الدفاع الموجود بها • وغالبا ما كان الصليبيون يبنون الحصون والقلاع ، ولكن حتى هــذه الأبنية كانت تقام فى أماكن كانت بهـــا تحصينات ســـابقة

ثم هجرها أهلها خـــلال فترة الثلاثة آلاف سنة التى يمتد تاريخ البلاد بطولها • وفى مثل هذه الاحوال ، فالراجح ان الصليبيين قد ساروا على التخطيط الذى قامت عليـه التحصينات الســابقة • كمـا انه من المؤكد أيضـــا انهم قد استفادوا من المبـانى التى اقيمت فى الموقع من قبل • فقد كان منطق الصليبى المحلى يقول : « ان قلعة مدمرة هى قلعة نصف مبنية بالفعل » • وقد تفاوتت التحصينات الصليبية بين الأبراج الصغيرة المقامة على الطرق ، والقلاع العملاقة مثـل صفد فى الجليل حيث كانت حامية فرسان الداوية والجهـاز الادارى العامل فى خدمتهم يصلون الى حوالى الفى نسمة • ومثل هـذا العدد من الســكان كان من الممكن أن يشغل احدى مدن أوربا آنذاك • وكان حجم الحصن يتوقف على موقعه ، وعلى الأموال والقـوى البشرية المتاحة ، وعلى الوظيفة المنوطة بهـــذا الحصن • فمركز الشرطة الذى يتولى حراســة أحــد الطرق ، أو المركز الادارى للاملاك الشاسعة لأحد التنظيمات العسكرية ، أو القلعة القائمة فى الأحراش فى مواجهة تهديد اسلامى مستمر عبر الصحارى الممتدة ، كلها يجب ان تبنى بشكل يختلف تبعا لمهامها المختلفة •

والأساس ان كل التحصينات كانت لها ثلاث وحدات دفاع رئيسية : الدفاعات الخارجية وهى عبارة عن الأسوار المحيطة والأبراج والحصن المركزى • وعادة ما كانت الدفاعات الخارجية تتألف من خنـدق بجـرف وجرف مقابل ، واحيانا برج خارجى أو نقطة مراقبة • وكان يلى هـــذه ستائر من الحوائط بهـــا فتحات ونوافذ بارزة ، وعادة ما تكون الأبراج مستديرة • وأكثر نظم الدفـاع تعقيـدا هو الذى كان يتركز بالقـرب من بوابة القلعـــة الرئيسية • ولم تكن الخنادق الصليبية تملأ بالمياه ، لأن « أرض اللبن والعسل » لا تسقط بها الأمطـار التى تكفى لملئها • وكانت مهمة هـذه الخنادق الرئيسية هى منع المنجنيقات أو أبراج الحصار من الاقتراب من الأسوار • وكانت الخنادق تبنى بدقة شـديدة وباتســاع

حـوالى ٤٥ قدما وعمق يتراوح بين ٢٤ و ٣٦ قـدما · ومن قاع الخندق تبرز الحوائط الخارجية للحصن وكانت قاعدة هذه الحوائط عبارة عن لوح مائل مصقول ثقيل بالقدر الذى يمنع اية محاولات لحفر نفق فيه · وعادة ما كانت القاعدة تمثل جرف الخندق وعلى هذه القاعدة القـوية الهرمية الشكل ترتفع الأسوار المنتظمة الى ارتفاع حوالى خمسين قدما (أو ثمانين قدما من قاع الخندق) وتبرز منها شرفات للدفاع · وترتفع الأبراج من ستائر الحوائط ويراعى ان تكون المسافات بينها بالقـدر الذى يسمح للسهام أو غيرهـا من المقذوفات بتغطية كل المنطقة المحيطة بالقلعة · واذا ما وجـد حائط ثان ، فغالبا ما كان يبلغ ارتفاعه ضعف ارتفاع الحائط الخارجى ، ويجهز بأبراج عالية تمـلأ الفراغات الموجودة بين أبراج الحائط الأول ·

وثمة وحدة منفصلة فى منتصف القلعة ، أو فى أكثر نقاطها ضعفا ، وربما يكون أحـد ابراج الحائط الثانى مقرا للحاكم أو القائد · وكان هذا هـو الحصن المركزى donjon · والحصن المركزى البـاقى فى بلفوار Belvoir بالجليـل عبـارة عن مبنى مستطيل الشـكل من دورين يضم فناء داخليا فسيحا · ولأنه مبنى من الحجارة الضـخمة الممتازة ، فانه كان بمثابة الخلية الأساسية فى الحصن · وكانت حجرة الاجتماعات هذه تؤدى الى القاعة الداخليـة التى تحيط بها اماكن اقامة الفرسـان ، والمطبخ والبئر وغيرها من لوازم الحياة اليومية · وفى الطابق الثانى ، الذى يتوصل اليه من سلم خارجى ، توجد الكنيسـة والمكاتب ، وحجرة القادة ، وأماكن الاقامة الاضافية · وكانت اركان الحصن المركزى مدعمة بالأبراج العالية التى يتم الصعود اليها بالسلالم الداخلية ·

وكانت دفاعات البوابات توجد فى العادة بين الأبراج ، وهى تعلو الستائر الحائطية · وكان يوجـد فى قيصرية ثلاثة طوابق عاليـه وبهـا شرفه فسيحة للمدافعين وأسـلحتهم الثقيلة · وكانت الحوائط والأبراج

مثقوبة بالمنافذ وقد أحصى فى حصن قسطل ثمانين من رماة السهام الذين يستطيعون القذف بسهامهم فى وقت واحد من المنافذ العديدة · وكانت البوابة فى حد ذاتها وسيلة دفاع معقدة · فثمة قنطرة تمتد على الخندق أمام القلعة وتؤدى الى البوابة · وكان الجسر كله أو جزء منه يشيد من الخشب تدعمه أقواس أو عامود قائم فى منتصف الخندق · وكان هذا يساعد المدافعين على حرق الجسر فى حالة تعرضهم للهجوم وبذلك يعزلون المدينة عن المنطقة المحيطة بها · وللبوابة ذاتها جناحان خشبيان يدخلان فى فراغ بالحوائط · وخلف البوابة الخشبية المقواة بالمعادن كان هناك حاجز حديدى يتم تشغيله من الطابق العلوى بواسطة رافعة يدوية · وكثيرا ما كانت البوابة على شكل حرف "L" لكى تحول دون الاقتحام المباشر فى حالة نجاح الهجوم الذى تتعرض له القلعة ، وتحميها من الداخل شرفة عليا يستطيع المدافعون أن يصبوا منها وابلا من سهامهم على الاعداء المهاجمين ·

ان الصدام بين الشرق والغرب فى الأرض المقدسة ، والذى حدث على كل المستويات ، قد وضع الصليبيين فى مواجهة تحديات أكبر من طاقة خبراتهم العسكرية الأصلية · فعلى الرغم من ان فن الحصار كان معروفا فى العصور الوسطى الباكرة ، فان الشرق واجه الصليبيين بمشكلات نادرا ما واجهتهم من قبل فى أوربا · فان حجم القلاع ، وحجم المدن التى تمتد حوائطها فى نطاق يبلغ عدة أميال ، جعل حصارها والالتفاف حولها حتى يموت السكان جوعا (وهو الاجراء العادى فى الغرب) أمرا غير مناسب فى حوض البحر المتوسط · بل ان المشكلة التى خلقتها المدن البحرية كانت اكثر حدة ، لان الصليبيين باعتبارهم سكان منطقة برية ، كانوا يفتقرون الى الأساطيل والى الخبرة البحرية · وفى هذه الظروف ، تطور فن الحصار حول الاقتحام ، اكثر منه حول عمليات الحصار العادية واحكام سد المنافذ على المدينة المحاصرة ·

حقيقة ان المـــرء كان يستطيع ان يرشـــق رؤوس الأسرى على الحراب ويستعرضهم تحت استحكامات المدينة ، كما جرت العادة بذلك فى كل من الشرق والغرب ، بيد أنه على الرغم من أن ذلك كان يخفض من الروح المعنوية للمحاصرين الا أنه لم يكن ينتهى بدمار أسوار القلعة • وبما ان مؤن المـدن والقلاع كانت تكفيها ، لا لعـدة شهـور ، بل لعدة سنوات ، وبما ان الفرصة لتجويعهم عن طريق الحصـــار كانت ضئيلة ، فقد كان يتعين الاستيلاء عليها عن طريق الاقتحام •

وفى نظام التسليح الهائل المستخدم فى حصار المدن ، يحتل البرج المتحرك مكان الصدارة ، وغالبا ما كان يسمى « برج الناقوس » بسبب شـكله وارتفاعه • وهـذا البرج يتكون من عـدة طوابق وكان أعلى من الاستحكامات المحاصرة ويتكون من سلسلة من المنصـــات يقف عليهـــا المهاجمون ، حيث يجهز الطابق العلوى بمنجنيقات صغيرة وجسر يمكن خفضه الى مستوى الشرفات التى يقف بها المدافعون ، وكانت صـعوبة استخدام مثل هــذه الأبراج ، الى جانب ما تتطلبه من نفقات باهظـة ، متعددة الجوانب ، فلم يكن هناك نجار من نجارى الضياع الاقطاعية كان يمكنه ان يبنى برجا يتراوح ارتفاعه بين ٤٥ و ٦٠ قدما ، يمكنه حمـــل عشرات من المحـــاربين ، ومن ثم كان لابد من الاستعانة بالمهندســـين الخبراء ، ومن المحتمل تماما أنه فى المرحلة الباكرة من الغـــزو استفاد الصليبيون من المسيحيين المحليين (يرد ذكر الأرمن فى هذا الخصوص) الذين يعرفون كيف يشيدون آلات الحصار • وثمة صعوبة أخرى تمثلت فى احضار برج الحصـــار ، الذى كان ينقل على عجـــلات أو جذوع الأشجار ، وتقريبه من الســور بقــدر الامكان • وكان هــذا يتطلب ملء الخنـــادق التى كان عرضها يتراوح بين ٤٥ و ٦٠ قــدما ، ويبلغ عمقه ستة وثلاثين قدما وتكويم الأحجار والأنقاض والاخشاب لملء أجــزاء من الخندق • وقد كان هذا عملا شاقا مرهقا • وكانت القوانين الصليبية فى

المملكة تنص على ان الفارس ليس مضطرا للنزول عن فرسه حتى فى وقت الحصار · ثم كان هناك الخطر الدائم وهو الزمن وقد شهد على ذلك كتاب المدونات التاريخية ، وكان من الممكن للمحاصرين ان ينجحوا فى حرق البرج فى هجمة مفاجئة على قوات الحصار أو باستخدام « النار الأغريقية » التى كانت مزيجا كيميائيا من الكبريت والراتنج وغيرهما من المواد القابلة للاشتعال من اختراع البيزنطيين · وكان هذا التركيب الكيميائى يوضع فى آنية فخارية ثم يشعل ويقذف أو يصلق بالبرج ويكون تاثيره قاتلا ، وغالبا ما كان يستخدم فى المعارك البحرية حيث كان يحرق كلا من الشراع والسفينة ، كما انه اثبت فعالية تامة فى معارك الحصار الأرضية · وفى بعض الاحيان لم تكن الآنية بسيطة بالقدر الذى يجعل المرء يسميها قنابل يدوية ، بل كانت براميل متفجرة كانت تقذف بواسطة المنجنيقات · ويجب ان نقرأ ما كتبه جوانفيل عن تجربته فى مصر لكى يقدر الانطباع الذى كان هذا النوع من النابالم الذى عرفه عالم العصور الوسطى يتركه على الغربيين ، فهو يقول :

« كانت النار الأغريقية تبدو مثل برميل كبير من العصير ، وذيله المشتعل فى طول السيف الطويل وأثناء طيرانها يصدر عنها صوت كالرعد ، وتبدو كتنين طائر فى الهواء ويصدر عنها ضوء قوى بدرجة تجعلك ترى معسكرنا كما لو كان فى وضح النار » ·

وكانت وسيلة حماية البرج الوحيدة ضد هذه النار هى الجلود الرطبة المأخوذة من الحيوانات المذبوحة حديثا أو اللباد المبلل بالخل ، وان كان ذلك لا يجدى كثيرا اذا ما طال الحصار ·

وحين تعجز ابراج الحصار عن السيطرة على الحصون ، كان المسلمون والصليبيون يستخدمون أجهزة أخرى لاحداث نقب فى الأسوار · واقدم هذه الأجهزة ، ولا يزال يستخدم بتاثير فعال ، هو

الكبش استخـدم لدك الأسوار ، وهو عبـارة عن آلة ذات رأس حديدية مدببة وقطعة خشبية تشبه الصارى معلقة بسلاسل وموجهة الى الأسوار ويدفعها عدة رجال · ولا يستطيع المحارب الواقع تحت الحصـار حماية نفسه بدرعه لأن ذلك لا يجدى نفعا ، كما انه كان يعوق نشـاطه · وفى مرحلة تاليـة تمت تغطيـة الكبش بنوع من البنـاء أو الغطـاء الذى كان يراعى ان يكون قويا بحيث يقاوم الحجارة والسـهام والقذائف الناريه التى يرميها الواقعون تحت الحصـار · وكانت هـذه الآلة الفعالة فى الحصار تشارك البرج أو « الناقوس » احدى مساوئه الرئيسية ، اذ كان لا يمكن المناورة به عبر الخنادق الكبيرة المحيطة بالحصون ما لم يتم ردم الخندق جزئيا أو كليا ·

وكانت هناك طريقة أخرى للحصـار ، مأخوذة عن القدماء ، وهى استخدام قطع من القاذفات لقلقلة الأحجار فى الأسوار وفتح ثغرة ينفذ منها الجيش المهاجم · وكان من المعتقد ان هذا الأسلوب يرجع فى أصله الى الفـرس أو الأتراك ، على الرغم من أنه كان معروفا لدى الجيوش الرومانية والبيزنطية ، وربما يكون دور الشرقيين قد اقتصر على تحسينه وتطويره · وكان هذا الأسلوب يلعب دورا حاسما فى الحصار ، وكانت المدفعيـة من نوعين أساسا ، كان احدهما عبارة عن قوس عمـلاق يتم تشغيله بحبال متينة لطلق المقذوفات والتى غالبا ما كانت قطع ملتهبة من المعـادن ؛ وكان الآخـر هو المنجنيق الذى يطلق الأحجار او غيرهـا من المقذوفات من تركيبة تشبه الملعقة · وأخيرا كان هناك فن حفر الانفاق ، أى استخدام الانفار فى سلاح المهندسين لحفر الانفاق تحت أسوار المدينة واذا ما تم الوصول الى نقطة أسفل الأسـوار تحرق الدعامات الخشبية وينهار النفق فتنهار معه أجزاء من الأسوار ·

وعلى الرغم من أن حصار القلاع والمدن والاستيلاء عليها كان يحدد فى النهاية مصير المملكة لان فقدانها كان اشبه بسحب الأرض من تحت

أقدام الصليبيين ، فان المعارك التى كانت تدور على الأرض المفتوحة كانت هى أكثر الاحداث أهمية فى الحوليات العسكرية للمملكة اللاتينية ٠ وكانت المشاكل التى تواجهها الجيوش الصليبية مشاكل معقدة للغاية فلم يكن على هذه الجيوش ان تتعامل مع خصم يتفوق عليها من ناحية العدد فحسب ، وانما كانت تواجه الجيوش الاسلامية التى كانت تنتهج أسلوبا قتاليا مجهولا تماما فى الغرب المسيحى على الرغم من معرفة جيرانهم البيزنطيين له ٠

وكانت القوة الأساسية فى الجيش الصليبى تتشكل من الخيالة الثقيلة التسليح ٠ وكانت هذه الحقيقة نتيجة لتطور حدث فى الغرب انبثق عن النظرية العسكرية السائدة وعن الوسط الاجتماعى الذى تطورت النظرية فى رحابه فى آن واحد ٠ وكان هذا التطور قائما على أساس التفرقة بين الصفوة العسكرية وبين صفوف العامة والاقنان ٠ فالخيال الثقيل التسليح ، وهو من الفرسان عادة ، كان دائما من ابناء الطبقة الارستقراطية الحاكمة ٠ وسواء كان سيدا أو تابعا اقطاعيا ، فان حياته بأسرها كانت تتركز حول الحرب والقتال ٠ وكان فرسه الذى كان قد تم عزله منذ زمن طويل عن حيوانات الزراعة ، يلقى تدريبا خاصا على حمولته الثقيله المكونه من الفارس ومعداته العسكرية ٠ وربما كانت تستخدم خيول اضافية لنقل الفارس الى ميدان المعركة ، بيد أنه كان ملزما على الدوام بأن يمتطى صهوة جواد حرب فى المعركة ٠ وكانت الخيول القوية السريعة تستخدم فى المواجهة المباشرة بين الخيالة ٠

هذه السمات الأساسية لم تكن راسخة تماما على أية حال ٠ فالفرسان والجيوش الصليبية ، التى كانت على اتصال دائم بكل من الجيوش الأوربية والجيوش الاسلامية ، قد خضعت لعملية من التعديل والتغيير اتضحت فى التكتيك وفى التغييرات الخاصة بمجال التسليح ٠ فعلى مدى ما يقرب من مائتى عام ، ظل الغرب يرسل زهرة فرسانه

الى المملكة اللاتينية وكانت هذه الامدادات ذات تأثير فعال فى مواكبة التسليح الصليبى للتطورات الأوربية • وكان قرار الاسبتارية يفرض على الفرسان القادمين من أوربا احضـــار خيولهم وأسلحتم التى كانت تكلف هذا التنظيم مبالغ طائلة • وكان هذا القرار مفيدا فى تلك الفترة • ومن ناحية أخرى استعار الصليبيون من المسلمين بعض أساليبهم ، على الرغم من انه من المحتمل ان يكون هذا أقل مما يتوقعه المرء •

فالتغيرات فى مجال التسليح لدى المسلمين ، اذا كانت قد حدثت أية تطورات على الاطلاق ، كانت على ما نعلم محدودة بالأجزاء الناعمة من لباس الحرب ، مثل الملابس الداخلية وطريقة تفصيل الثياب الخارجية (وعلى الاقل هذا ما حدث فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر تحت حكم المماليك) • وكانت معداتهم العسكرية تعتمد على التقاليد المحلية ، ففتح مصر على يـــد صلاح الدين واستقـــدام قواته الكردية ، الى جانب القوات التركية من ســـوريا ، ربما يكون قد ســـاعد على قدر أكبر من الاتساق فى المؤسسة العسكرية الاسلامية • ومع بروز قوة المماليك ابان حملة لويس التاسع على مصر صار التسليح المغولى هو السائد • وبعد ذلك بحوالى جيل ، حين استولى السلطان بيبرس المملوكى على ســوريا وأعالى بلاد ما بين النهرين ، ودفع بالمغول الى داخـل المملكة الايرانيـة توحد الزى والتسليح العسكرى فى مملكـة المماليك بل لقـد تحدد شكلها وأصبح ثابتا بحكم القانون •

وكانت الخوذة ، والدرع الكامل حول الجسد ودرع الذراع هى أهم القطع الدفاعية لدى كل من المسلمين والمسيحيين ، وفى المعسكر الصليبى، تعرضت هذه القطع الثلاث لتغيرات منذ زمن الحملة الصليبية الأولى • فالدرع الجسدى الذى كان فى الأصل جامدا وغير مريح ، أصبح أكثر خفة ومرونة وأمانا فى نفس الوقت • أما الدرع المسمى Broigne ، (وهو عبارة عن سترة علقت بهـــا حراشف معدنية) فقد كان يلبس فوق

سترة من الجلد أو القماش ويصل الى أسـفل ركبتى الفارس ، وغالبا ما كان يصل الى كعبيه · وكان مفتوحا فى الجـزء السفلى حتى يسمح بالركوب وكان يغطى جزءا من الساقين ، على الرغم من أن الفارس كان يرتدى أحيانا جوارب طويلة من نفس التركيبة لتغطية ساقية · وهـذا الشكل من درع الجسد استبدل بما يسمى الهوبيرك hauberk وهـو عبـارة عن سترة من الزرد الذى كان أغلى كثيرا من سابقة اذ استبدلت الحراشف المعدنية بحلقات أو سلاسل متداخلة من الزرد وأصبحت مستقلة عن الملابس الداخلية · وغالبا ما كانت للهوبيرك ياقة واكمام طويلة تنتهى بقفازات ·

أما درع الجسد لدى المسلمين فقد كان أكثر خفـة ومرونة · ففى زمن الحملة الصليبية الأولى كان المسلمون يرتدون سترة تسمى بالزردية كانت تكمله جوارب وأغطية للساقين ، وعلى الرغـم من أن الزردية مثل الدرع الأوربى آنذاك ، غالبا ما كانت تصل الى كعبى المحارب · وسترة الزرد ، التى طرأت عليهـا التحسينات بفضـل فن البرشـمة أو التثبيت بمسمار ، ظلت تستخدم حتى مطلع العصر الحديث · ولأنها كانت باهظة التكاليف ، كانت العلائات تتوارثها جيلا بعد جيل دون أى تغيير يذكر · وكان الدرع الخشبى ودرع الرقائق لدى المسلمين يختلف الى حد ما عنه لدى الأوربيين ، ويبدو انه موروث عن المغول والتتار الآسيويين ، فقد كانت كل قطعة فى هذا الدرع تثبت فى الثياب التى تحتها ، وغالبا ما كانت القطع متطابقة · اما الدرع المكون من عدة طبقات ، والذى غالبا ما كانت تزينه الصور أو الكلمات المقدسـة ، فكان يصلح للاحتفالات أكثر من الاستخدام العملى · وكان الدرع الخشبى يحمى الجسـد تماما ، ولكن لابـد أنه كان يعوق الحـركة مثـل البروين broigne لا سيما بالنسبة للفارس · أما الرداء الأكثر راحة فكان عبارة عن سترة قصيرة من الزرد تعرف باسـم بريجـاندين Brigandine فى أوربا والقزاغند Kazaghand

(القرقل فيما بعد) فى الشرق • وكانت هذه السترة تصنع اما من سلاسل الصلب أو المسامير المعدنية الصغيرة المثبته فى بطانة من اللباد أو غيره ، وأحيانا من الثياب الملونة الغالية •

أما الخوذة لدى الصليبيين فقد طرأت عليها تغييرات كثيرة • اذ كان نمطها الشائع ابان الحملة الصليبية الأولى عبارة عن خوذة حديدية مخروطية الشكل بزوائد جلدية لكى تغطى الرقبة ، وغالبا ما كانت لها قطعة أمامية لحماية الوجه • وبينما أصبح درع الجسد أكثر قوة ولكن أكثر لينا ، تطورت الخوذة فى اتجاهين مختلفين : فمن ناحية اتخذت شكل غطاء رأس صغير من الحديد بحافة سميت باسم Chapeau de fer ؛ ومن ناحية أخرى أصبحت خوذة ضخمة لها قمة كبيرة مسطحة أو دائرية وثقيلة للغاية وتغطى الاذنين والرقبة وتستقر على الكتفين • واستبدلت قطعة الانف بقناع به فتحات للتنفس • وكان غطاء الرأس الحديدى ، مثل الخوذة ، يلبس فوق قلنسوة من الزرد تتصل بالهوبيرك •

اما الخوذة الاسلامية فلم تتغير كثيرا خلال فترة الحروب الصليبية• وكان شكلها الأساسى يشبه البيضة المستطيلة ومن ثم اطلق عليها اسم « البيضة » • وكانت هذه الخوذة علامة على المكانة العالية عند المسلمين وغالبا ما كانت تزين وترصع بكتابات من القرآن • وكان لبعض هذه الخوذات قطع للانف وأغطية للرقبة على هيئة الجمل ، ولكنهم لم يبتكروا قناعا للوجه مثل القناع الأوربى • وفى بعض الاحوال كانت سلاسل الزرد تستخدم لتغطية الوجه ولكن هذا كان يمثل استثناء الى حد ما ويبدو أن الريش أو الاعراف كانت اضافة متأخرة •

وقد خضع الدرع اليدوى الصليبى لأكثر التغييرات عمقا وجذرية •

فخلال الحملة الأولى ، كان عبارة عن قطعة كبيرة صلبة من الخشب المغطى بالجلد أو الخشب بالروابط الحديدية التى تنبثق كالأشعة من نقطة مركزية • وكان على شكل الحدأة ، مستدير عند أعلاه ويغطى المحارب من رقبته حتى قدميه • ولا شك ان الدرع كان أكثر عملية فى القتال على الأقدام منه على ظهور الخيل ، حيث كان يعلق فى الاكتاف بحزام جلدى وقد كان ذلك مربكا للمحارب ولكنه مفيد طالما ان الدرع الجسدى كان غير كاف • وفى حالة احكام الدرع الجسدى ، أصبح الدرع الطويل لا جدوى منه واستبدل بدرع دائرى أو مثلث صغير الحجم يغطى صدر وبطن الفارس • أما الدرع الاسلامى فكان يختلف منذ البداية • فحينما كان مقاتلو الحملة الصليبية الأولى ما يزالون يحملون دروعهم الكبيرة ، كانت الخيالية الاسلامية تستخدم درعا خفيفا مستدير الشكل يسمى الترس • وكان من المعتاد ان يشبك بحزام أفقى من الداخل وكان من السهل استخدامه • وكانت هذه الدروع تختلف تمام الاختلاف عن دروع الصليبيين بحيث صارت من ملامح التصور الغربى التقليدى للمقاتلين المسلمين •

والأدوات الثلاث الرئيسية للدفاع عن الجسد ـ الخوذة والدرع والترس ـ أضيف اليها مع الوقت سترة خارجية وهى عبارة عن قميص أبيض بلا اكمام يلبس فوق الدرع الجسدى • وفى وقت ما قرب نهاية القرن الثانى عشر ، صارت السترة والدرع وغطاء الرأس ، فى أغلب الاحوال ، تحمل العلامات المميزة للفارس • وكان هذا ميلادا لفن الدروع وعلاماتها لدى كل من المسلمين والصليبيين • وهو الفن الذى استمر فى الوجود بشكل أو بآخر حتى وقتنا هذا • فالرسوم الهندسية ، والزهور ، والوحوش وما شابه ذلك توضع على السترة ، والدرع والبيارق • ومصطلحات « شعار النبالة » و « درع النبالة » مستمدة من السترة الخارجية والدرع اللذين كانت ترسم عليهما العلامات المميزة للسلاح •

ويبدو أن شعار النبالة كان يستخدم فى الأصل لتسهيل التعرف على الفارس المدرع ولكنه تطور الى شعار عسكرى للعائلة النبيلة • وقد أصبح فن الدروع العسكرية فنا تعليميا وكانت الشعارات العسكرية اعلان عن الأصل وتذكرة دخول فى طبقة النبلاء • ولم يقتصر هذا الفن على أوربا على أية حال ، فقد ظهر بين المسلمين فى القرن الثانى عشر وصار شائعا تماما بين أفراد الارستقراطية الملوكية الحاكمة • وغالبا ما كان يرتبط بالوظائف التى يقومون بأدائها فى القرن الثالث عشر • وفى ذلك الوقت ، أضاف فن رسم الشعارات النبيلة الألوان والتصميمات الى جيوش الغرب والشرق ، وأصبح المظهر العسكرى نموذجا مألوفا يتضح فى البيارق التى كانت ترفرف على الحراب ، والسترة الخارجية وعلى كسوة الحصان •

وكانت الأسلحة الهجومية لدى كل من المسلمين والصليبيين متماثلة • باستثناء القوس الذى كان يستخدمه الفرسان المسلمون • وكان الرمح أكثر شيوعا لدي المحاربين المسلمين ، وكان يستخدم كسلاح للطعن وان كان يستخدم فى القذف كذلك • وقد استخدم المسلمون ، وربما الصليبيون كذلك ، رمحا طويلا مركبا فى بعض الاحيان • أما السيف ذو الحدين والمقبض المستدير أو المفرطح ، فكان يوضع فى جراب جلدى يعلق فى الرقبة والكتف • ولكنه صار يعلق فى الوسط فى مرحلة لاحقه • وكان السيف التقليدى مستقيما ، ولكن بعض أسلحة المسلمين كانت مقوسة • أما السيف الاحدب ذو الحد الواحد ، والذى صار فيما بعد سلاحا شرقيا نمطيا فلم يظهر الا بعد الحروب الصليبية • وكان الجراب الخشبى الذى يستخدمه المسلمون يغطى بالجلد أو القماش الفاخر ، على حين كان السيف ذاته يزين ويحلى بالمجوهرات • ومن الغريب تماما ، على الرغم من شهرة السيوف الدمشقية ، أن السيوف الاسلامية الممتازة كانت مجلوبة أصلا من الهند أو الصين • وكان تعبير « دمشقى » ينطبق فى

الواقـــع على الزخرفة وتزيين السيف بالجواهر ، وهو ما كان يتم فى سوريا وليس النصل المعدنى نفسه (الحديد والصلب أو السيف الحديدى المحفوف بالصلب) ٠

أما الدبوس ، فكان يصنع من الحـديد أو الصـــلب ، ويستخدمه المقاتل المسلم والمقاتل الصليبى على حد ســـواء ٠ وهو عبارة عن قطعة سلاح كروية الشـــكل بها نتوءات وتجاويف ، وكانت تستخدم لســـحق الخوذات أو كسر العظام ٠ أما البلطة المسماة بالبلطة الدنماركية ، وهى بلطة ذات حدين فقد كان يستخدمها الصليبيون ، ولم يعرفها المســلمون الذين كانوا يفضلون استخدام « الطبر » وهو عبارة عن بلطة ذات حـد واحد وعلى شكل نصف دائرة ٠ وكان للقوس والقوس المنجنيقى مـكانة فى ترسانة الأسلحة الاسلامية واشتهرت دمشق بصناعة الأقواس الجيدة وقد ذهب اليها حنا الأرمنى الذى كان مدير المراسم للملك لويس التاسع لكى يشترى الغراء والقرون من أجل صناعة الأقواس المنجنيقية ٠

ولم يكن التغيير الذى طرأ على التكتيك العسكرى لدى الصليبيين أو حتى التعديلات اللازمة لمواجهة الجيوش الشرقية ، نتيجة للصـــــدام مع القوة العسكرية المصرية ـ التى كانت أقوى خصم فى الشرق ـ وانما كان نتيجة للصدام مع الجيوش السورية وجيوش ما بين النهرين ٠ اذ لم يكن المصريون أبدا أمة عسكرية ٠ ومنذ القرن الثانى عشر حتى الغزو التركى العثمانى لمصر ، كان كل أوربى يزور مصر يخرج بانطباع عن طبيعتهـــا المسالمة ٠ وقبل الفاطميين بوقت طويل ، كان حكام مصر يجندون قواتهم المحاربة الرئيسية من بين القبائل البدوية فى المقاطعات الشرقية وشـــبه جزيرة سيناء ٠ وكانت بعض القبائل مثل بنى كنانة لهم شهرة ذائعـــة لمهاراتهم القتالية وشجاعتهم ، واستخدمهم الحكام المصريون للدفاع عن حدود مصر الشرقية ٠ ومن الغريب أن الصليبيين الذين اعتادوا على قتال البدو ؛ بل ونجحوا فى تحويل بعضهم الى حلفاء (حول عسقلان وغزة

على حدود صحراء سيناء وفيما وراء نهر الأردن عند مدخل شبه جزيرة العرب) ، كانت فكرتهم قليلة عن صفاتهم العسكرية والأخلاقية · فقد كان البدو يعتبرون أدلاء ممتازين وقوات مساعدة ، ولكن حين يشتغل القتال فانهم لم يكونوا يصمدون أمام الأسلحة الغربية · وكان الصليبيون يعتقدون انهم جبناء لا يعتمد عليهم ينضمون الى الجانب الرابح فى اللحظات الأخيرة لكى يساهموا فى القتل وينالوا نصيبهم فى نصر لا يستحقونه · وبالاضافة الى قواتهم المحلية ، كان حكام مصر يعتمدون على القوات المرتزقة الى حد كبير ، أو على الجماعات العسكرية من العبيد الصغار الذين اعتنقوا الاسلام وتدربوا منذ الشباب على المهارات العسكرية ، وكان أولئك هم أسلاف المماليك ، الذين استولوا فى النهاية على المملكة المصرية من أيدى خلفاء صلاح الدين الضعاف (١٢٥٠ م) ، كما انهم أيضا كانوا أسلاف جيوش الانكشارية القوية · وكانت مثل هذه الفرق تجلب من داخل افريقيا ويجلب الرقيق الأبيض من مناطق البحر الأسود · وكان الأفريقيون يعرفون باسم العبيد ، وغالبيتهم من أصل سودانى (السودان اسم مشتق من الكلمة العربية سواد) ، على حين كان يطلق على العبيد البيض اسم المماليك ·

وقد واجه الصليبيون القوات المصرية برماة السهام الرجالة والفرسان من حملة السلاح الخفيف · ولم يكن أى من هذين النمطين من الجنود جديدا على الصليبيين ، على الرغم من أنه عند نهاية القرن الحادى عشر كان رماة السهام الرجالة قد فقدوا أهميتهم فى فن القتال الغربى · وكانت الخيالة الخفيفة عند المصريين أكثر حركة منها لدى الصليبيين ولكن عند القتال المتلاحم قلما كسب المصريون معركة ، ما لم يكن عددهم ساحقا فى كثرته ، أو يقوموا بهجمة ناجحة أو يحتلون موقعا يجعل لهم ميزة واضحة · وعادة ما كانت القوة المركزية فى جيش الخليفة أو وزيره (نادرا ما كان الخلفاء الفاطميون يتركون قصورهم وحريمهم)

تتكون من قوات ذات أصول مملوكية • وكانت هـذه القوات تتفوق فى مهاراتها القتالية وعادة ما كانت تدين بالولاء لقائدها • وغالبا ما كانت المعركة تحسم بهذه القوات المختارة ، اذ أن فرارها أو نجاحها كان يؤثر بشكل مباشر على بقية فيالق الجيش المصرى •

وكان الموقف مختلفا تماما وعلى النقيض من ذلك بالنسبة لجيوش ما بين النهرين وسوريا وفارس ، التى كانت تشترك أحيانا فى القتال ضد الصليبيين • فبالاضافة الى القبائل العربية التى كانت تقطن ربوع بلاد ما بين النهرين وسوريا وحاميات المدن المحلية ، كان العسكر ، وهـم القوة الأساسية لهذه الجيوش ، من الأتراك السلاجقة • وعلى الرغم ان اكثر من مائة سنة كانت قد مضت على تركهم لموطنهم فى وسط آسيا بحثا عن حياة أفضل فى الشرق الأدنى فان هؤلاء البدو لم ينسوا أبدا أساليبهم التقليدية فى القتال ، وكان العنصر الرئيسى فى هـذا الأسلوب القتالى à la turque هـو رامى السهام الراكب ، وهو نمط من القتـال قـديم ، بل وورد وصفه فى الكتاب المقدس : « هكذا قال الرب • هو ذا شعب قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة تقوم من اقاصى الأرض • تمسك القوس والرمح • هى قاسية لا ترحم • صوتها كالبحر يعج • وعلى خيل تركب مصطفة لمحاربتك » (ارميا ٦ : ٢٢ ـ ٢٣) • وكان الأتراك بتجهيزاتهم الخفيفة وخيولهم السريعة القوية يمثلون التحدى الحقيقى امام الجيوش الصليبية ، فلم يكونوا اكثر حركة من خيالة الغرب الثقيلة فحسب ، ولكن مفهومهم عن الحرب والقتال كان مختلفا •

وكانت قـوة الجيوش الصليبية تـكمن فى خيالتهم الثقيلة ، التى كانت مهمتها القضاء على أى شىء فى طريقها • وكانت صـدمة قوتها والتأثير الذى يتركه الفرسـان المدرعون بالحديد لا يمكن مقاومتهما • وغالبا ما كانت نتيجة المعركة تتحدد خلال المواجهة الأولى ، ما لم يستطع الخصم ان دفع بتعزيزات جديدة أو تقوم اجنحة جيشـه بالاطباق على

الجيش المهاجم ومهاجمته · ولكن الخصم التركى كان يفتقر الى التعاون ونادرا ما اتفق على معركة خاطفـــة وكون جبهـــة مغلقة لكى يدمرها الصليبيون · ولم يكن الأتراك خفيفى الحركة فحسب ، ولكنهم احضروا معهم من بدارى منغوليا القوس القاتل · ولم يكن الأتراك يلتحمون فى قتال مباشر ولكنهم يطلقون وابلا من السهام من مسافة تقرب من ثمانين مترا حيث لا تستطيع أسلحة الصليبيين الوصول اليهم · ولم تكن السهام لتخطىء تلك الجمهرة الكبيرة من الفرســان المتجمعين ســـويا · وكان الصيبيون فى وضع ثابت كالبط الراقد ، وكانت محاولة الهجوم على جيش اسلامى اشبه ما تكون بمطاردة الريح ، ذلك ان هذا الجيش كان يختفى ببساطة وراء خط الأفق · ولم يكن الموقف افضـــل اذا ما تحرك الجيش الصليبى · فبين الآونة والأخرى ، كان الخيالة المسلمون يظهرون وكأنما انشقت عنهم الأرض ويدورون حول الجيش الصـــليبى المتحرك ويطلقون عليه سهامهم ثم يختفون ليظهروا مرة أخرى بعد وقت قصير وقد امتلأت جعابهم بالسهام من جديد ·

وفى هذه الظروف كانت سلامة الفارس الصليبى تعتمد على درعه وخوذته وترســـه · فلم تكن السهام لتخترق خوذته أو ترســـه بسهولة · كما لم تكن تنفذ خلال درعه المكون من السلاسل ببساطة ما لم تضرب فى نقطة ضعيفة مثل الرقبة أو الوجه · بيد أن التغييرات التى أدخلت على الدرع الجسدى وعلى الخوذة سرعان ما جعلت هذه الأهداف صعبة الى حد ما · الا ان هذا لم يمنع المسلمين من قذف الخيول من أسفل الفرسان· فالفارس المترجل لا يكون فارسا على الاطلاق · اذ لا يكون كبرياؤه قد جرح فحسب ، ولكن فعاليته القتالية أيضا تتضاءل الى لا شىء ·

وسرعان ما استجاب الصليبيون للتحدى الاسلامى بانتهاج أسلوب الأتراك فى القتال بشكل جزئى · ولم يكن هذا بالأمر السهل ، فالصليبيون

الذين لم يتميزوا بالمرونة فى أساليبهم عولوا على الموهبة المحلية وكونوا فرقا من السكان المحليين اطلقوا عليهم اسم التركوبلى Turcoples (أى أبناء الأتراك) الذين كانوا يقلدون الأتراك السلاجقة فى تسليحهم وأسلوب القتال عندهم · فالخيول السريعة والأسلحة الخفيفة وجعبة السهام والقوس كانت أهم ما يميزهم · وربما كان المقاتلون الأصليون فعلا من الأتراك أو المولدين من الأتراك والبيزنطيين ، ولكنهم فى نهاية الأمر صاروا يجندون من المحليين كالأرمن والبدو ، وربما جندوا فيما بعد من السكان الصليبيين أى البولان·ولم تكن هذه القوات تحارب فى المعارك الصليبية الحقيقية ، ولكنها كانت تلقى تقديرا أكثر كوحدات اضافية احتياطية مساعدة ، على الرغم من أن مهمتها الرئيسية كانت دفع الهجمات المفاجئة التى يشنها الأتراك السلاجقة ومنعهم من الافادة بميزة القوس والسهم · كذلك كانت لفرق الرهبنة العسكرية فيالقها الخاصة من التركوبلى وكان هناك ضابط خاص مسؤول عن تجنيدهم وقيادتهم ·

والى جانب النجاح الذى يمكن ان يكون قد حققه استخدام فيالق التركوبلى فان الصليبيين استجابوا للتحدى التركى عن طريق ابتكار طريقة جديدة للقتال تقوم على رد الاعتبار لرامى السهام العادى · وقبل مائتى سنة من حسم أقواس الويلزيين الطويلة المعارك لصالحهم فى مواجهة الفرسان الفرنسيين ، كان الصليبيون قد جعلوا من رماة السهام الراجلين جزءا أساسيا فى جيوشهم · وبينما كان القوس والسهم فى أوربا القرن الثانى عشر يرتبطان بالصيد أو يتركان لاستخدام العامة كطريقة قتال مستهجنة الى حد ما ، انشأ الصليبيون فيالق من رماة السهام لجيوشهم · وقد صار الرماة هم طليعة الجيوش فى المواجهة بتجهيزاتهم الخفيفة التى تشتمل على غطاء الرأس الخشبى أو الجلدى ، وصديرى ، ودرع خشبى والقوس ، والسهام · وكان المشاة الذين يحيطون بفيالق الفرسان من الامام والجانبين والخلف مسؤولين عن ابقاء العدو

على مســـافة معقولة ومنع الرماة الراكبين الســـلاجقة من استخدام اسلحتهم على نحو فعال · وفى المعارك الكبيرة كانوا يقومون بدور الحائط الواقعى الذى يتجمع الفرسان داخله حتى يحين الوقت المنــاسب ويصبح الوضع مناسبا للقتال · واذا ما اطلقوا سهامهم ، افسحوا الطريق امام الفرسان الثقيلة التسليح من الصليبيين لكى يتحركوا ضد العدو · وكان الرماة يجندون من بين سكان المدن والمؤسسات الكنسية أى من الفرنجة دون مستوى النبلاء · وعادة ما كانت المدن والمؤسسات الكنسية تضطلع بواجب تجهيز فيالق الرماة للجيوش وكان اولئك هم الجنود المشاة الذين كان بعضهم يقوم بالقتال ايضا ضمن الخيالة الخفيفة ·

وكان استخدام الرماة المشاة ، ســواء اثناء الســير أو فى خضــم المعركة ، يعتمد على وجود نظام محكم بين مختلف التشكيلات·وكانت هذه مشكلة صعبة تجابه كل الجيوش فى العصور الوسطى والتى كانت تتألف من النبلاء الذين يصعب قيادتهم · فالشباب الذين تستحوذ عليهم الرغبة فى أثبات وجودهم والصعود الى المجد امام اقرانهم لم يكن من الســهل ابــدا السيطرة عليهم · بل ان المشــكلة كانت اكثر صــعوبة فى الجيوش الصليبية ، لأن معدل السير ولحظة الهجوم كانت مرهونة الى حد كبير بالرماة وحاملى الحراب بخطواتهم الوئيــدة · وكان هذا يعوق حركة الفرسان ، وفى مواجهة العدو لم يكن من السهل كبح جماح حماســـة المقاتلين العسكرية ، لا سيما اولئك الذين تجشموا عناء الطريق الطويل من أوربا لمحاربة الكفار · ومع ذلك فقد كان هناك نظام يحتم عدم اختراق صفوف النبالة وعليه كانت تتوقف سلامة الجيش بأسره ·

وسرعان ما اكتشف العدو نقطة الضعف فى التشكيلات الصليبية ، وبقدر الامكان ، كان المسلمون يتحاشـــون أية مواجهـــة مباشرة مع الصليبيين ، لأن ذلك كان يعنى ان تكتسحهم الخيــالة المدرعة الثقيلة · وكان هذا يعنى تجنب المعارك فى السهول المفتوحة ، والتى كانت تسمح

باستخدام الخيالة المدرعة بشكل فعال ، وكان المسلمون يفضلون الأرض التلية والجبلية أو الاغوار لما توفره لهم من ميزات • ومن ناحية اخرى كانوا يناورون لضرب الأجنحة وفصل النبالة المشاة من فرسان الصليبيين• واذا ما تم الفصل بينهما كان الفارس الصليبى يتجـرد من حماية الرماة وبذلك يصبح هدفا لسهام الخيالة الأتراك • وقد وعى المسلمون هـــذا الدرس تماما وكانت هذه المناورة هى السبب الرئيسى فى هزيمة الجيوش الصليبية فى معركة حطين الفاصلة •